المكتبة/المدرسة الظاهرية: تاريخ من العلم والتعليم

فيصل الحفيان ■

مقدمة:

لا تقوم حضارة من دون مؤسسات في مختلف مناحي الحياة، وفي صدارة هذه المؤسسات تلك المرتبطة بالعلم، المتعهِّدة له، والحضارة العربية الإسلامية ليست بدعاً في ذلك؛ فقد شهدت كثيراً من المؤسسات التعليمية والعلمية والدينية والجهادية والخيرية وغيرها. هذه المؤسسات قامت بدور كبير في حياة الناس، وتدبير أمورهم من ناحية، وفي تحديد إسهاماتهم في الحضارة الإنسانية بعامة من ناحية أخرى.

لقد عدَّ النعيمي (المتوفى 927هـ) ـ والذي خصَّص كتابه الكبير «الدارس في تاريخ المدارس»[1] الذائع بين أهل الاختصاص ـ نحو (300) من هذه المؤسسات التي كانت بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين في دمشق وحدها! منها (158) مدرسة!

1 ـ صدر بتحقيق جعفر الحسني عن مجمع اللغة العربية بدمشق في جزأين (مصورة مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1988).

■ منسق برامج معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

وفي هـذه المـدارس كانت تتم حركـة انتقال العلم عبـر الأجيال، المشايخ يلقون، أو يملون، ومريدوهم أو طلبتهم يتلقون، أو يأخذون. ومع التعليم تجري العمليات العلمية نفسـها، وتتمثل فـي تلك المؤلَّفات على اختلاف أشكالها (التأليف، النقد، التعليق، الشرح، الاختصار، النظم... إلخ) وكأنها عصارة فكر أولئك الأسـاتذة، وخلاصـة تجربتهم مع العلم والتعليم.

تقاليد العلم:

إن تقليب النظر في كتاب النعيمي، واسـتخلاص ما تحمله الألفاظ وظلالها من معـانٍ، يؤدي بنا إلـى أن نلمس تلك التقاليـد التي كانت تسود الحياة العلمية ومؤسساتها في ذلك الزمان الذي غبر، ونتوقف هنا عند بعضها باختصار:

- حظيت هذه المؤسسات التعليمية بمكانة عالية، قد لا تدانيها فيها مؤسسـات أخرى؛ نظراً للمكانـة التي يحظى بها العلم نفسـه، ومن ثَمَّ طالِب العلم، حتى إنهم رأوا في هذا الأخير نائباً عن اللّه تعالى نفسـه؛ لأنـه يقوم على حفـظ علم الديـن؛ ديـن اللّه. ولهذا قالوا بمسـؤولية المجتمع عن كفاية طالب العلم من الرزق، لا عن رزقه فحسب.

- على أن هذه المكانة لم تجعل منها مؤسسـات رسمية؛ بمعنى أنها لم تصبح عملاً من أعمال الدولة، تنشئها وتقوم عليها؛ بل ظلت منجزات فردية، ينهض بها أشخاص قد يكونون ملوكاً أو أمراء أو علماء أو أثرياء، ويجـرون الأوقاف عليهـا؛ لينفق من ريعهـا على الصيانة، والأسـاتذة، والطلبة. والوقف ظاهرة معروفة في الحضارة الإسلامية، ليس في ميدان العلم والتعليم فحسب؛ ولكن في ميادين أخرى كثيرة.

- اتسـمت هذه المؤسسـات (المدارس) بالتركيب؛ فهي ليست مجرد مدارس تتم فيهـا عملية التعليم؛ لكنها تسـتلزم بالضـرورة مكتبات أو خزائن كتب، وكأن هذه الأخيرة مؤسسات رديفة تدخل في نسيج المدرسة

ذاتهـا؛ إذ لا يصلح علـم أو تعليم من دون كتاب. إن هـذه المكتبات أو الخزائن لم تقتصر على المدارس؛ بل تجاوزت المدارس إلى المسـاجد والربـط والخوانق والزوايا والترب والمشـاهد وغيرها، لتصبح قاسـماً مشتركاً يجمع بين مختلف المؤسسـات العلمية والدينية والخيرية، وكأن العلم فـي صورته المشـاهدة المنضبطة المحتواة بيـن دفتي كتاب هي ضرورة، عبادة كان أو جهاداً، أو تعليماً... إلخ.

اتسمت المؤسسات (المدارس) بالتركيب؛ فهي ليست مجرد مدارس تتم فيها عملية التعليم؛ لكنها تستلزم بالضرورة مكتبات أو خزائن كتب، إذ لا يصلح علم أو تعليم من دون كتاب

ـ كما ارتبطت بفـروع المعرفة العلمية، أو التخصصـات، فمنها مـا هو خـاص بالقرآن الكريم وعلومه، ومنها ما يقتصر نشـاطه على الحديـث النبـوي وعلومـه، ومنها مـا يُعنى بالطب، ومنها ما ينشـغل بالفقـه... إلخ، بل إنها قد ترتبـط بتخصصات داخل التخصصات العامة، فثمة مـدارس للفقه الحنفي، ومدارس للشافعي، ومدارس للحنبلي، ومدارس للمالكي، على أن هذه التخصصات لم تكن ضربة لازب؛ فثمة مدارس جمعت بين غير تخصص، القرآن والحديث وعلومهما مثلاً. ولربما مرت المدرسـة بمراحل، تنقلت فيها بين غير تخصص، فقد تبدأ شـافعية، ثم تصبح حنفية... وقد يكون التحول أكبـر، فتبدأ دار حديث مثلاً، وتتحول مع الزمن إلى مدرسة فقه!

1 ـ هُوِيَّة «الظاهرية»

تسـمع اسـم «الظاهريـة» فينصـرف ذهنك رأسـاً إلـى «المكتبة الظاهرية» التي تعرف في دمشـق، والتي أصبحت اليوم جزءاً مما يُطلق عليه اليوم «مكتبة الأسـد الوطنية» لا تسـتدعي الذاكرة غيرها: مكتبة فحسـب، ومسـمَّى واحداً لا غير. وليس ما استحضرته سـريعاً موجوداً وحده، ولا ما أفلت منـك غائباً حقيقة؛ إن ما انصـرف الذهن إليه هو المسمَّى القريب منا زمناً، الذي لا يجاوز عمره نحو قرن وما يزيد على

ربع قرن، والقريب منا شـهرة. فقد أُنشئت هذه الظاهرية / المكتبة عام 1895م، وقـام بالعـبء الأكبر في إنشـائها بل في بعث فكرتها أساسـاً العلَّامة الشـيخ طاهر الجزائري (ت1920م) وسـاعده في ذلك مدحت باشا والي دمشق، وعدد من أعيان دمشق وعلمائها ووجهائها. ومما يذكر أن للجزائـري فضلاً آخر في إنشـاء مكتبة أخرى معروفـة، هي المكتبة الخالدية في القدس.

كان الجزائـري أول مدير لدار الكتب الظاهرية ـ كما كان اسـمها عند إنشـائها ـ وفيها (28) دفتراً بخطه، احتوت علـى تراجم ومذكرات وفوائد تاريخية وأسماء مخطوطات مما رآه، أو قرأ عنه[1].

في هذه الدار اجتمع عدد من المكتبـات بفضل الجزائري وجماعة، سمتها المصادر: المكتبة العمرية، مكتبة العظم (عبد الله باشا، وسليمان باشـا) والملا عثمان الكـردي، والخياطين، والمرادية، والشـميصاتية، والياغوشـية، والأوقاف، وبيـت الخطابة، والأحمدية (بعـض رصيدها)، وجامع يلبغا، ومكتبة الكزبري.

وما دمنا قد ذكرنا الشيخ الجزائري فلا بد أن نذكر الرئيس محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي، الذي ألحقت به المكتبة في عهد الأمير فيصل، ذلك أن كرد علي هو الذي رَمَّمَ في حينه بناءها، ووسَّعه.

ويبقى السؤال: تُرى لماذا سميت بـ«الظاهرية»؟ هل هو اسم حديث مبتـدَعٌ، وإن كان فلمـاذا النسـبة إلـى «الظاهر»؟ أم إنه اسـم قديم تاريخـي، ومن أين جاء؟ وهل له علاقـة بـ«الظاهر»، وأي «ظاهر» هو إذا كان لدينـا تاريخيّاً «ظاهـران»: الظاهر غـازي، والظاهر بيبرس، أولهما ابن صلاح الدين (الدولة الأيوبية) والآخر من سـلاطين الدولة المملوكيـة التي أعقبـت الأيوبية، وهـو الذي خلف قطز الـذي نعرفه،

1 ـ فهرس مخطوطـات دار الكتب الظاهريـة ـ التاريـخ وملحقاته، خالد الريان. دمشـق: مطبوعات مجمع اللغة العربية، 1973م.

صاحب عين جالوت، وأخيراً مَن الذي أطلق عليها الاسم؟ ولماذا اختار «الظاهر» تحديداً؟

نبدأ بالسؤالين الأخيرين: مَن الذي أطلق الاسم، ولماذا «الظاهر» تحديداً؟ الحق أني لم أرَ في المصادر الإجابة عن السؤال الأول، ولربما كان ذلك بسبب تقصير مني، فإني لم أستقص؛ لكني أعتقد أنه طاهر الجزائري صاحب الفكرة ومنفذها. وليست إجابة السؤال الثاني ببعيدة؛ لكن الأمر يحتاج إلى تفصيل.

1/1: المكتبة / المدرسة:

كان الجزائري أول مدير لدار الكتب الظاهرية ـ كما كان اسمها عند إنشائها ـ وفيها (28) دفتراً بخطه، احتوت على تراجم ومذكرات وفوائد تاريخية وأسماء مخطوطات مما رآه، أو قرأ عنه

هذه المكتبة التي قام عليها الشيخ طاهر الجزائري في أواخر القرن التاسع عشر أنشئت في إحدى مدارس دمشق القديمة هي المدرسة الظاهرية الجوانية، وقد وصف النعيمي مكانها، فقال: «داخل بابي الفرج، والفراديس بينهما، جوار الجامع (يريد الجامع الأموي) شمالي باب البريد، وقبلي الإقباليتين والجاروخية، وشرقي العادلية الكبرى (يريد المدرسة العادلية) باباهما متواجهان، بينهما الطريق، بنيت مكان دار العقيقي، وهي كانت دار أبي أيوب، والد صلاح الدين»[1].

وصف دقيق، ما يهمنا منه، أنها قريبة من الجامع الأموي، وأنها في الأساس مدرسة، وما فعله الجزائري أنه اختار قبة هذه المدرسة القديمة، فجعل منها دار كتب، وجعلت معظم الكتب في خزائن على ضريحي الملك الظاهر وابنه الملك السعيد. والطريف أن المكتبة في القبة، وأنها مدرسة ابتدائية حديثة في جزء من المدرسة القديمة،

1 ـ الدارس في تاريخ المدارس، مرجع سابق 348/1، 349.

فكأن رسالة المدرسة القديمة قد بُعثت من جديد بصورة ما، ولا شك أن المكتبة ـ أيضاً ـ استمرار للمكتبة القديمة التي كانت ملحقة بالمدرسة.

الجزائري ـ إذاً ـ كأنه اختار المكان، واستدعى اسمه التاريخي، وجعل من وظيفته الجديدة استمراراً لوظيفته القديمة في ما يتصل بالمكتبة بخاصة، أما المدرسة (الابتدائية) فلعلها أنشئت بعيداً عنه.

وإذا كانت الظاهرية الحديثة امتداداً للقديمة؛ فإن القديمة ترجع ـ في ما يقول ابن كثير ـ إلى سنة 676هـ، ففي يوم السبت الموافق التاسع من جمادى الأولى شرع في بناء الدار التي تعرف بدار العقيقي تجاه العادلية، لتجعل مدرسة وتربة الملك الظاهر[1]، والعقيقي هذا توفي سنة 378هـ، ويضيف ونقل النعيمي عن ابن قاضي شهبة أن الظاهر اشترى داره وبناها مدرسة ودار حديث وتربة، وقارب تاريخ ذلك، ولم يحدِّده، فقال: إنه كان في حدود سنة 670هـ[2].

وإذا كان الظاهر قد توفي سنة 676هـ، وصَحَّ ما قاله ابن كثير من أنه قد شُرِع في بنائها في هذه السنة نفسها، فإن نسبة المدرسة إلى الظاهر قد يكون فيها شيء من التجاوز، إذ يبدو لي أن الذي بناها أو على الأقل أمر بإكمال بنائها هو ابنه الملك السعيد، وربما كان الأمر أبعد من ذلك فقد نقل محمد كرد علي عن الصلاح الكتبي أن الظاهر كان قد أوصى أن يدفن على السابلة قريباً من داريا، وأن يبنى عليه هناك، فرأى الملك السعيد أن يدفنه داخل السور، فابتاع دار العقيقي وأمر أن يبنى مدرسة للشافعية والحنفية ودار حديث وقبة للدفن، وفي هذه القبة دَفَنَ أباه. ولم يكتمل بناء المدرسة إلا بعد صفر، نَصَّ على ذلك اليونيني، وهو يذكر أن نائب السلطنة أيدمر الظاهري قد دَرَّس

1 ـ البداية والنهاية، ابن كثير، القاهرة، دار هجر للطباعة والنشر، 536/18.

2 ـ الدارس في تاريخ المدارس 348/1 - 349.

فيها في يــوم 13 من صفر، ولم يكن بناء المدرســة قد كمل. لقد مات الســعيد في العام نفســه الذي مات فيه أبوه (676هـ) فاكتملت في عهد السلطان قلاوون.

حتى القرن التاســع الهجري كانت هذه المدرســة تعمــل، فقد عَدَّ النعيمي فيمَنْ عَدَّ ممن درسوا فيها فتح اللّه بن الشهيد، المتوفى 823هـ، وذكر من دَرَّس فيها أيضاً سنة 843هـ.

2/1: الظاهرية / الظاهريات:

إنّ المدرسة الظاهرية منسوبة إلى الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك، وهذه المدرسة عرفت بالمدرسة الظاهرية الجوانية، والجوانية في مقابل البرَّانية

سبق أن المدرســة الظاهرية منسوبة إلى الظاهــر، والظاهر هــو الظاهــر بيبرس أحد ســلاطين المماليك، وســبق أن هذه المدرسة عرفــت بالمدرســة الظاهريــة الجوانيــة، والجوانية في مقابــل البرَّانية، فثمة مدرســة أخرى هي الظاهرية البرانية ذكرها النعيمي، لكن هــذه الأخيــرة لا علاقــة لهــا بالظاهر بيبرس؛ إذ نســبتها للظاهــر غازي بن صلاح الدين، الذي ولي حلب، وتوفي ســنة 613هـ، فهي أقدم من ظاهرية بيبرس، وقد درســت ولم يبق لهــا أثر، ومكانها بحســب وصف المصادر خــارج باب النصــر بمحلة المنيبــع بين نهري القنوات وبانياس على الميدان بالشرق القبلي.

هاتان ظاهريتان في دمشــق، ولدينا ظاهرية ثالثة في مدينة سورية أخرى (حلب) منســوبة أيضاً للظاهر غازي. ولدينا ظاهرية رابعة منسوبة للظاهر بيبــرس؛ لكنها بعيدة في القاهــرة، ومعلوم أن ســلطان الدولة المملوكية كان يمتد إلى الشام، وأن بيبرس كان يعرف بـ«صاحب مصر والشام».

3/1: مكان الظاهرية:

لا تزال ظاهريــة بيبرس قائمة، أو آثارها على الأقل تدل عليها، وقد كتب محمد كرد علي في الربع الأول من القرن العشــرين مقالاً نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشــق (مجمع اللغة العربية اليوم) وجمع فيه بين الظاهرية والعادلية، وقال عنهما: إنهما من أهم مدارس دمشق الباقيــة بعض الشــيء إلى اليــوم، وذكر أن بنــاء الظاهريــة كان بعد العادلية بنحو ســتين عاماً، وتوقَّف في ما يتصــل بالظاهرية عند أمرين مهمين:

أولهما: إن صــورة وقفها ما زال ظاهــراً مقــروءاً، وإن كان الوقف نفسه قد اندثر.

وثانيهما: تلك الجملة التي بقيت على مدخل المدرســة محفورة: من عمل إبراهيم بن غانم المهندس رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد علَّق على الجملة بأنهــا تدل على أن المهندس عربي، ونعى على المؤرخين إهمالهم بتراجم المهندسين وكان حقهم أن يعنوا بهم عنايتهم بتراجم المتفقهين والمتأدبين.

كما أشــار إلى أنه ما زال في جدر قبة المدرســة نموذج صالح من الفسيفساء في القــرن الســابع، وضروب من الحجــر الملون، فالقبة أو ما تحتهــا من أنفس آثار دمشق.

وختم بأنــه إذا ما جرى ترميــم الظاهرية، وأعيدت هندســتها كما كانت يوم إنشــائها، ورمِّمت واجهتــا بنائها من الخارج، فإنها ســتصبح أنموذجاً صالحاً من أنموذجات البناء البديــع في العصور الغابرة، وإذا فرِّغــت أطرافها أيضاً، تصبح كلهــا دار كتب كبرى أمينــة من الحريق، وزينة على جبين الدهر.

2 ـ صورة الظاهرية

1/2: في المصادر القديمة:

بدأت المدرسة الظاهرية ـ كما سبق ـ دار حديث ومدرسة للفقه الشافعي والحنفي، وعلى الرغم من أن النعيمي قد أشار إلى بعض الأسماء التي تولت مشيخة دار الحديث فيها، فإنه لم يعدَّها في دور الحديث التي رصد منها (16) داراً، على حين ذكرها ضمن مدارس الشافعية، ثم ذكرها مرة أخرى في مدارس الحنفية!

ويبدو أنها كانت ذات شأن، وبدهي أن تكون كذلك؛ لارتباطها بالسلطانيْن بيبرس وابنه السعيد، ثم تعهّد قلاوون لها، ويدلك على ذلك أولئك الذين نُسبوا إليها، على أنهم دَرَّسوا فيها، أو حضروا دروسها، فممَن دَرَّس نائب السلطان نفسه أيدمر، وقد كان مدرس الشافعية فيها الشيخ رشيد الدين الفارقي (ت689هـ)، ومدرس الحنفية الشيخ صدر الدين سليمان بن أبي العز (ت677هـ). وممن دُرِّس فيها الصفي الهندي وابن الزملكاني وابن القلانسي وابن الشهيد النابلسي ونجم الدين بن الحابي وغيرهم كثر، وتولى مشيخة دار الحديث فيها أبو إسحاق اللَّوْري (ت687هـ)، وتقي الدين الواسطي (ت692هـ)، وعفيف الدين الآمدي (ت725هـ)، وأخيراً شمس الدين الذهبي.

كانت المدرسة ـ كما كانت المدينة التي فيها (دمشق) ـ مقصداً لكثير من العلماء من بلاد الشام المحيطة، ومن البلاد البعيدة كالأندلس، فاللَّوْري الذي ولي مشيخة دار الحديث فيها رعيني أندلسي، ونسبته إلى لَوْرة من أعمال إشبيلية، والفاروثي كان شيخ العراق قبل أن يتولى مشيختها.

2/2: حديثاً:

لم يبق من المدرسة سوى اسمها ومكانها، اسمها «الظاهرية» ومكانها على الوصف الذي سلف، ثم بقي الاسم، وتغير المكان، فقد

نُقلت محتوياتها إلى المبنى الجديد للمجمع العلمي العربي، في ما يعرف اليوم بـ«حي المالكي» القريب من ساحة الأمويين، ثم لمَّا أُنشئت مكتبة الأسد الوطنية، أصبحت مخطوطات الظاهرية وكُتبها جزءاً من مكتبة الأسد، ولم يبقَ في «المجمع» إلّا صور من تلك المخطوطات، وربما بعض المخطوطات الأصلية التي لا تمثل الكثير من الرصيد الأساس الذي يقال: إنه يبلغ نحو عشرين ألفاً.